

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من كلمات المفسرين

البراء بن محمد

(١)

الحمد لله

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الفاحة]

"ومعنى ﴿الحمد لله﴾: الشكر خالصا لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم لذلك

عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في

النعيم المقيم. فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً".

الطبري

(٢)

شر الدواب

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنفال/٥٥]

"يقول تعالى ذكره: إن شر ما دب على الأرض عند الله، الذين كفروا بربهم، فجحداوا

وحدانيته، وعبدوا غيره ﴿فهم لا يؤمنون﴾ يقول: فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرون بوحيه

وتنزيله"

الطبري

(٣)

عادة الملوك

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي

الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقْتِلُ آبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا

فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

[الأعراف/١٢٧]

"فإن قيل: فما وجه إقدامهم على الإنكار على فرعون مع عبادتهم له؟ قيل: لأنهم رأوا منه

خلاف عادته وعادة الملوك في السطوة بمن أظهر العناد وخالف، وكان ذلك من لطف الله

بموسى"

الماوردي

(٤)

لا تجزي نفس عن نفس

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

[البقرة/٤٨]

"ثم الوجوه التي تخلص المرء في الدنيا إذا أصابته نكبة بثلاث:

إما بفداءٍ يفدى عنه - مالاً أو نفساً - وإما بشفعاء يشفعون له، وإما بأنصارٍ ينصرون له؛

فيتخلص من ذلك.

فقطع - عز وجل - عنهم جميع وجوه التخلص في الآخرة"

الماتريدي

(٥)

الملك الحق

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

[طه/١١٤]

"قوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ ارتفع الملك الحق ذو الحق"

السمعاني

(٦)

الشهداء

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدِ
وَمَشْهُودِ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

[البروج/١-٩]

"وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى والفرح بالشهادة، ما أضحوا
مثالا وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعتة عن يقينه، سواء افتتن بماله أو نفسه أو
بسلب حق له. لا جرم أن من تلا ما ورد في الوعد الصادق لكل مفتون في الدين، استبشر
بما أعد للمخلصين الصابرين"

القاسمي

(٧)

اتخذ إلهه هواه

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ۗ هُوَ أَفْأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۚ ٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾

[الفرقان/٤٣-٤٤]

"يعني تعالى ذكره: ﴿أرأيت﴾ يا محمد ﴿من اتخذ إلهه﴾ شهوته التي يهواها وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبد، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه، فلذلك قال جل ثناؤه ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ يقول تعالى ذكره: أفأنت تكون يا محمد على هذا حفيظاً في أفعاله مع عظيم جهله؟ ﴿أم تحسب﴾ يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يسمعون﴾ ما يتلى عليهم، فيعون ﴿أو يعقلون﴾ ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه، بل هم من البهائم أضل سبيلاً لأن البهائم تهتدي لمراعيتها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم". الطبري

(٨)

أقبل بقلبك

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ

اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

[الروم/٤٣]

"أي: أقبل بقلبك وتوجه بوجهك واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره

ونواهيه بجد واجتهاد وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة. وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده ولا يرجأ

العاملون أن يستأنفوا العمل بل فرغ من الأعمال لم يبق إلا جزاء العمال.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم ويصدرون أشتاتاً متفاوتين ليرؤا أعمالهم"

السعدي

(٩)

فاتبعوني يحببكم الله

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[آل عمران/ ٣١]

"هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

ابن كثير

(١٠)

بل نقذف بالحق

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

[الأنبياء/١٨]

"يقول تعالى ذكره: ولكن ننزل الحق من عندنا، وهو كتاب الله وتنزيله على الكفر به وأهله،

فيدمغه، يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ،

وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة"

الطبري

والله يعصمك من الناس

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[المائدة/٦٧]

"وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله، وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهرائي من ضاد الله وعانده ولم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في دين الله وشدّة شكيمة في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزو الأقدام، ومضطربو القلوب، من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلفة وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾"

الشوكاني

(١٢)

ثلاث طبقات

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۗ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ ۗ هُوَ

الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

[فاطر/٣٢]

"ولقد أحسن أبو بكر الوراق كل الإحسان حيث قال: رتب الله هذه الأمة على ثلاث طبقات؛ لأن أحوالهم على ثلاث: معصية ثم توبة ثم قرينة، فإذا عصى العبد كان ظالماً لنفسه، ثم إذا تاب صار مقتصدًا فإذا ثبت على التوبة دخل في السابقين. ولهذا المعنى بدأ في ذكرهم بالظالمين. على أن الواو عند أهل التحقيق لا توجب ترتيباً"

الواحدى (البسيط)

(١٣)

إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

[العصر/١-٣]

"وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، إن الدنيا وما فيها كأنها خلقت وأنشئت متجراً

للخلق، والناس فيها تجار؛ كما ذكره في غير آي من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ

عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، أي: إن الإنسان لفي خسارة من تجارته ومبايعته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.

ولقائل أن يقول: كيف استثنى أهل الربح من أهل الخسران، ولم يستثن أهل الخسران من أهل

الربح؟! فيقول: "إن الإنسان لفي ربح إلا الذين كفروا"، واستثناء هذه الفرقة من تلك أولى

في العقول من تلك؟!!

والجوب عن هذا: أن هذه الآية إنما نزلت بقرب من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم،
والقوم بأجمعهم كانوا أهل كفر وخسار؛ فلذلك وقع الاستثناء على ما ذكر؛ إذ استثناء القليل
من الكثير هو المستحسن عند أهل اللغة، وإن كان القيم الثاني في حد الجواز، والقرآن في
أعلى طبقات الكلام في الفصاحة.

ثم قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ اسم جنس؛ فكأنه أراد: جميع الناس؛ ألا ترى أنه
قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولا تستثنى الجماعة من الفرد؛ فكأنه يقول - على هذا - : إن
الناس في أحوالهم واختيارهم في خسر إلا من كانت تجارته في تلك الحالة ما ذكر"

الماتريدي

(١٤)

وعد الله الذين آمنوا

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا
وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[النور/٥٥]

"هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكماها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحابه، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهي عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن أ لهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فأنحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة

مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجي الخراج من المشارق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها" فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يزال أمر الناس ما ضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا". ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: "كلهم من قريش".

ورواه البخاري من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، به

وفي رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك، وذكر معه أحاديث أخر

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلا وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش، يلون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكون متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعا ومتفرقا، وقد وجد منهم أربعة على الولاء، وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في وقت يعلمه الله. ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلا وقسطا، كما ملئت جورا وظلما"

ابن كثير

(١٥)

كرامة النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ۚ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

[الفرقان/٥١-٥٢]

"يقول تعالى ذكره: ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كلِّ مصر ومدينة نذيرا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فيخفّ عنك كثير من أعباء ما حملناك منه، ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة، ولكننا حملناك ثقل نذارة جميع القرى، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعدّ الله لك من الكرامة عنده، والمنازل الرفيعة قبّله، فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم، فنذيقك ضعف الحياة وضعف الممات، ولكن جاهدكم بهذا القرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويدعنوا للعمل بجميعة طوعا وكرها"

الطبري

(١٦)

إنك على صراط مستقيم

قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[الزخرف/٤٧]

"لما هون الله على رسوله ﷺ ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم ووعده النصر عليهم، فرع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابه وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجرا من تصلبهم في كفرهم ونفورهم من الحق.

والاستمساك: شدة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

والأمر به مستعمل في طلب الدوام، لأن الأمر بفعل لمن هو متلبس به لا يكون لطلب الفعل بل للمعنى آخر وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أوحى إليه كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذا كما يدعى للعزيم المكرم، فيقال: أعزك الله وأكرمك، أي أدام ذلك، وقوله: أحياك الله، أي أطال حياتك، ومنه قوله تعالى في تعليم الدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

والذي أوحى إليه هو القرآن.

وجملة ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحى إليه وتعليل له.
والصراط المستقيم: هو العمل بالذي أوحى إليه، فكأنه قيل: إنه صراط مستقيم، ولكن عدل
عن ذلك إلى ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ ليفيد أن الرسول ﷺ راسخ في الاهتداء إلى مراد
الله تعالى كما يتمكن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه ولا خشية
الضلال في بنياته. ومثله قوله تعالى ﴿إنك على الحق المبين﴾ في سورة النمل.

وحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾.
وهذا تثبت للرسول ﷺ وثناء عليه بأنه ما زاع قيد أملة عما بعثه الله به، كقوله إنك على
الحق المبين ويتبعه تثبت المؤمنين على إيمانهم. وهذا أيضا ثناء سادس على القرآن "

الطاهر ابن عاشور

الغفور الرحيم

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ

فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[يونس/١٠٧]

"في الآية دقيقة أخرى، وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو، وذلك يدل على أنه

تعالى يزيل المضار؛ لأن الاستثناء من النفي إثبات، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه، بل قال:

إنه لا راد لفضله، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعرض

كما قال النبي ﷺ رواية عن رب العزة أنه قال: ((سبقت رحمتي غضبي)).

الثاني: أنه تعالى قال في صفة الخير: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وذلك يدل على أن

جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

والثالث: أنه قال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة، وحاصل

الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع،

وأنه لا موجد سواه، ولا معبود إلا إياه، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات، والشر مراد بالعرض. وتحت هذا الباب أسرار عميقة، فهذا ما نقوله في هذه الآية"

"وأما قوله: ﴿وإن يردك بخير﴾ فقال الواحدي: هو من المقلوب، معناه: وإن يرد بك الخير، ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر. وأقول: التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية، فقوله: ﴿وإن يردك بخير﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان، وسائر الخيرات مخلوقة لأجله، فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب"

الفخر الرازي

(١٨)

ظالم لنفسه

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ ۚ

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا

مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

[الكهف/٣٥-٣٦]

"وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وهو معجب بما أوتى مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته: لطول أمله واستيلا الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه، ليجدّ في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا، تطمعا وتمنيا على الله، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئصاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ، لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا"

الزمخشري

(١٩)

إنما أعظكم بواحدة

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ/٤٦]

"والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم: وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصا. متفرقين اثنين اثنين، وواحدا واحدا ثم تَتَفَكَّرُونَ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرّقهم مثني وفردى: أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يسمع إلا نصرة المذهب" الزمخشري

(٢٠)

الكفر سبب لخراب العالم

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾

[نوح/١٠]

"قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه.

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه:

أحدها: أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا﴾ ﴿أن دعوا للرحمن ولدا﴾ فلما كان الكفر سببا لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سببا لعمارة العالم.

وثانيها: الآيات منها هذه الآية، ومنها قوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم

بركات﴾ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم﴾ ﴿وأن

لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك﴾. وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية.

ورابعها: أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقليل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء. المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة، ونوؤه يكون عزيزا، شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، وعن بكر بن عبد الله: إن أكثر الناس ذنوبا أقلهم استغفارا، وأكثرهم استغفارا أقلهم ذنوبا، وعن الحسن: أن رجلا شكأ إليه الجذب، فقال: استغفر الله، وشكأ إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية"

الفخر الرازي

(٢١)

فمن يرد الله أن يهديه

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام/١٢٥]

"ويقول تعالى ذكره: فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له ﴿يشرح صدره للإسلام﴾، يقول: فسح صدره لذلك وهوّنه عليه، وسهّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول"

الطبري

(٢٢)

ظاهر الإثم وباطنه

قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

[الأنعام/١٢٠]

"يعني: الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسره، وقال مجاهد: ظاهر الإثم ما يعمله بالجوارح من الذنوب، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له.

وقال الكلبي: ظاهره الزنا وباطنه المخالعة، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الروايات، وباطنه الاستسار به، وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا فكان الشريف منهم يتشرف، فيسر به، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرمهما الله عز وجل، وقال سعيد بن جبير: ظاهر الإثم نكاح المحارم وباطنه الزنا".

البعوي

(٢٣)

إني عذت بربي وربكم

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

[غافر/٢٦-٢٧]

"واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة "إني" تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر

في دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إني عذت بربي وربكم﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ

بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن،

فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله

يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿إني عذت بربي وربكم﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقائي، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿وربكم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء؛ لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق.

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوا سواء كان مظهرا لتلك العداوة أو كان مخفيا لها.

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران؛ أحدهما: كون الإنسان متكبرا قاسي القلب. والثاني: كونه منكرا للبعث والقيامة؛ وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمل طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له من

الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذروني أقتل موسى﴾ قال على سبيل الاستهزاء ﴿وليدع ربه﴾ فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك.

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله. والله أعلم"

الفخر الرازي

(٢٤)

والله غالب على أمره

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۖ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف/٢١]

"ثم قال تعالى: ﴿والله غالب على أمره﴾ وفيه وجهان:

الأول: غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه.

والثاني: والله غالب على أمر يوسف، يعني أن انتظام أموره كان إلهيا، وما كان بسعيه، وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله.

واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله، وأن

قضاء الله غالب "الفخر الرازي

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

[فصلت/٣٧]

"يقول تعالى ذكره: ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه،

اختلاف الليل والنهار، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه، والشمس والقمر، لا الشمس تدرك

القمر (وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا

للقمر، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان به لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين

له في جريهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما

وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضرراً، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله

فاسجدوا، وإياه فاعبدوا دونها، فإنه إن شاء طمس ضوءهما، فترككم حيارى في ظلمة لا

تتهدون سبيلا ولا تبصرون شيئا"

الطبري

(٢٦)

حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ

يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

[التوبة/٢٩]

"لا بد معه¹ من إلحاق الذل والصغار للكفر، والسبب فيه أن طبع العاقل ينفر عن تحمل

الذل والصغار، فإذا أمهل الكافر مدة وهو يشاهد عز الإسلام ويسمع دلائل صحته،

ويشاهد الذل والصغار في الكفر، فالظاهر أنه يحمله ذلك على الانتقال إلى الإسلام، فهذا

هو المقصود من شرع الجزية".

الفخر الرازي

¹ أي: مع دفع الجزية

(٢٧)

سواء علينا أجزعنا أم صبرنا

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّنا اللَّهُ

لَهَدَيْنَكُمُّ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾

[إبراهيم/٢١]

"إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، وإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى

الله، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله! قال: فبكوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإتوا

أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا نصبر! فصبروا صبراً لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند

ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾"

ابن زيد

(٢٨)

فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟

قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

[الأعراف/٤٤]

"واعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها﴾ دل ذلك على أنهم استقروا في الجنة في وقت هذا النداء، فلما قال بعده: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ دل ذلك على أن هذا النداء إنما حصل بعد الاستقرار، قال ابن عباس: وجدنا ما وعدنا ربنا في الدنيا من الثواب حقًا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقًا؟ والغرض من هذا السؤال إظهار أنه وصل إلى السعادات الكاملة وإيقاع الحزن في قلب العدو"

الفخر الرازي

(٢٩)

من الظلمات إلى النور

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[الحديد/٩]

"وقوله: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي: حججا واضحة، ودلائل باهرات،

وبراهين قاطعات، ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر

والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وإن الله بكم لرءوف رحيم﴾ أي: في إنزاله

الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبهه."

ابن كثير

(٣٠)

ونردُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله؟

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ
يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ اثْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام/٧١]

"﴿قل أدعو من دون الله﴾ أي أنعبد من دون الله النافع الضار ما لا يقدر على نفعنا ولا
على ضررنا، ونرد على أعقابنا راجعين إلى الشرك بعد أن أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام؟
ويقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل إنه رجع إلى خلف، ورجع على عقبيه ورجع
القهقري، والسبب فيه أن الأصل في الإنسان هو الجهل، ثم إذا ترقى وتكامل حصل له
العلم. قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة﴾ فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة، فلهذا
السبب يقال: فلان رد على عقبيه".

الفخر الرازي

فمثله كمثل الكلب

قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
 الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
 الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَهُ
 يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الأعراف/١٧٥-١٧٦]

"واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات
 هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا،
 وأخلد إلى الأرض، كان مشبها بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا
 التمثيل وجوه:

الأول: أن كل شيء يلهث وإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث
 في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة منه
 وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة،

فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واضب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيصة، لا لأجل الحاجة والضرورة. والثاني: أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات يدلع لسانه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبدا من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمجرد الطبيعة الخسيصة.

والثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهته البتة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة"

الفخر الرازي

إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

فَاَحْذَرُوهُمْ ؕ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التغابن / ١٤]

"يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم" أي إن بعضهم كذلك فمن الأزواج أزواجا يعادين بعولتهم ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها، ومن أفسدت عقله بإطعام بعض المفسدات للعقل، ومن كسرت قارورة عرضه، ومن مزقت كيس ماله - ومن، ومن - وكذا من الأولاد من فعل نحو ذلك ﴿فاحذروهم﴾ أي كونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشههم، والضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لي﴾ فالمأمور به الحذر عن الكل، أو للأزواج، والأولاد جميعا، فالمأمور به إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو، وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتغالهم على العدو ﴿وإن تعفوا﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿وتصفحوا﴾ تعرضوا بترك التشريب والتعيير

﴿وتغفروا﴾ تستروها بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ قائم مقام الجواب، والمراد يعاملكم بمثل ما عملتم، ويتفضل عليكم فإنه عز وجل ﴿غفور رحيم﴾ ولما كان التكليف ها هنا شاقاً لأن الأذى الصادر ممن أحسنت إليه أشد نكايه وأبعث على الانتقام ناسب التأكيد في قوله سبحانه: ﴿وإن تعفوا﴾ إلخ، وقال غير واحد: إن عداوتهم من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمر النافعة لهم في آخرتهم، وقد يحملونهم على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم كما روي عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ((يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجته وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك))².

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه منه فيهلك، وسبب النزول أوفق بهذا القول "

الآلوسي

² قال العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين: "رواه الخطابي في العزلة من حديث ابن مسعود نحوه وللبيهقي نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف" انتهى.

(٣٣)

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ۚ كَذَلِكَ

فَعَلَّ الَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[النحل/٣٣]

"أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك"

القرطبي

(٣٤)

وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[الأنعام/١٢٩]

"الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين، فالله تعالى يسלט عليهم ظالماً مثلهم فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم. وأيضا الآية تدل على أنه لا بد في الخلق من أمير وحاكم؛ لأنه تعالى إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم، فبأن لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح كان أولى. قال علي رضي الله عنه: لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر، فأنكروا قوله: أو جائر فقال: نعم يؤمن السبيل، ويمكن من إقامة الصلوات، وحج البيت"

الفخر الرازي

(٣٥)

كدأب آل فرعون

قال تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ

اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الأنفال / ٥٢]

"ثم ختم تعالى الكلام بقوله: ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ والمراد منه أنهم كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر

والمعصية، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاء، وأن الله تعالى إنما أهلكتهم بسبب

ظلمهم، وأقول في هذا المقام: اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم، فقد عظمت

فتنتهم وكثر شرهم، ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت، فادفع يا قهار يا جبار يا منتقم"

الفخر الرازي

(٣٦)

قل إن كان آباؤكم

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[التوبة/٢٤]

"وهذه آية شديدة، لا ترى أشد منها؛ كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أروع الناس، وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله، والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشائر، والمال والمسكن، وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟"

الزمخشري

(٣٧)

ولو شاء ربك لآمن من في الأرض

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[يونس/٩٩-١٠٠]

"يقول تعالى لنبىه محمد صلى الله عليه وسلم: ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا

بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرتة صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن

كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين.

أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة

غير الله شيء من ذلك.

وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله أي: بإرادته ومشئته، وإذنه القدرى الشرعى، فمن كان

من الخلق قابلا لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهداه.

ويجعل الرجس أي: الشر والضلال على الذين لا يعقلون عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلتقون

بالأ لنصائحه ومواعظه"

السعدي

(٣٨)

ومن يهاجر في سبيل الله

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۗ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ۖ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

[النساء/١٠٠]

"هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغما في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا .

وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتا بعد الألفة، وفقرا بعد الغنى، وذلا بعد العز، وشدة بعد الرخاء .

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل،

وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصا إن كان مستضعفا .

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاضة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى " .

السعدي

(٣٩)

الفاسق الخبيث

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ

مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ عَلَيْكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

[النور/٣]

"الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنى والتقحب، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله، أو في مشركة. والفاسقة الخبيثة المسافحة. كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين. ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنى: محرم عليه محذور لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور موقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفسد. ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراء الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب، وقد نبه على ذلك بقوله وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ"

الزمخشري

(٤٠)

ولا تقربوا الزنا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

[الإسراء ٣٢]

"الزنا اشتمل على أنواع من المفسدات:

أولها: اختلاط الأنساب واشتباهاها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم.

وثانيها: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرت عليه يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق.

ورابعها: أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

وخامسها: أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية.

وسادسها: أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلا كان السعي في تقليله موافقا للعقول، فاقصر المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل، وأيضا ما فيه من الذل يصير مجبورا

بالمنافع الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصبر مجبوراً بشيء من المنافع فوجب بقاءه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة: كونه فاحشة، ومقتا في آية أخرى، وساء سبيلاً:

أما كونه فاحشة: فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضاً يوجب خراب العالم.

وأما المقت: فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه.

وأما أنه ساء سبيلاً: فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعييه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع، فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه؛ والله تعالى ذكر ألفاظاً ثلاثة، فحملنا كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة، والله أعلم بمراده"

الفخر الرازي

(٤١)

وحملها الإنسان

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[الأحزاب/٧٢]

"من الأمانة أن المرأة أوتمنت على فرجها"

أبي بن كعب

(٤٣)

فبأي حديثٍ بعده يؤمنون؟

قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

[المرسلات/٥٠]

"وإنما أعلمهم تعالى ذكره أنهم إن لم يصدّقوا بهذه الأخبار التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحة حججه على حقيقته لم يمكنهم الإقرار بحقيقة شيء من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبر عنه، ولم يعاينوه، وأنهم إن صدّقوا بشيء مما غاب عنهم للدليل قام عليه لزمهم مثل ذلك في أخبار هذا القرآن"

الطبري

(٤٤)

تقريع لإبليس وضربائه

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة/٣٤]

"وهذا وإن كان من الله تعالى ذكره خبراً عن إبليس، فإنه تقريع لضربائه من خلق الله الذين

يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به، وفيما نهاهم عنه، والتسليم

له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق"

الطبري

(٤٥)

يخادعون الله وهو خادعهم

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[النساء/١٤٢]

"إن المنافقين يخادعون الله، بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجاً منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم"

الطبري

(٤٦)

ويا قوم لا أسألكم عليه مالا

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَمَا أَنَا

بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

[هود/٢٩]

"﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ على تبليغ الرسالة ﴿مالا﴾ تعطونه ﴿إن﴾ ما ﴿أجري﴾ ثوابي

﴿إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كما أمرتموني ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ بالبعث فيجازيهم

ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم ﴿ولكني أراكم قوما تجهلون﴾ عاقبة أمركم"

السيوطي (الجلالين)

(٤٧)

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾

[التوبة/ ٣١]

"أي: علماءهم وقراءهم، والأحبار: العلماء، واحدها حبر، وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلوا وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالآرباب. روي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: "يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك"، فطرحتة ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ حتى فرغ منها، قلت له: إنا لسنا نعبدهم، فقال: "أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟" قال قلت: بلى، قال: "فتلك عبادتهم".

قال عبد الله بن المبارك: وهل بدل الدين إلا الملوك... وأحبار سوء ورهبانها". البغوي

(٤٨)

وأنت خير الوارثين

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

[الأنبياء/٨٩]

"﴿وزكريا﴾ أي واذكر خبره عليه السلام ﴿إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا﴾ أي وحيدا بلا ولد يرثني كما يشعر به التذييل بقوله تعالى: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ ولو كان المراد بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقليل وأنت خير المعينين، والمراد بقوله تعالى: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ وأنت خير حي يبقى بعد ميت، وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عز وجل، وقيل أراد بذلك رد الأمر إليه سبحانه كأنه قال: إن لم ترزقني ولدا يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت"

الآلوسي

إن في ذلك لعبرة لمن يخشى

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

[النازعات/١٥-٢٦]

"ثم ختم تعالى القصة بقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي: في أخذه وما أحل به من

العذاب والخزي، عظة ومعتبرا لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته في كل من

يقاوم الحق ويحاربه؛ فإن نبا الأولين عبرة للآخرين"

القاسمي

(٥٠)

ما تجدد دين إلا زال به ملك

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

[غافر/٢٦]

"﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ فيها وجهان: أحدهما: يغير أمركم الذي أنتم عليه، قاله

قتادة. الثاني: معناه هو أن يعمل بطاعة الله، رواه سعيد بن أبي عروبة.

الثالث: محاربه لفرعون بمن آمن به، حكاه ابن عيسى.

الرابع: هو أن يقتلوا أبناءكم ويستحيوا نساءكم إذا ظهروا عليكم كما كنتم تفعلون بهم، قاله

ابن جريج.

ويحتمل خامسا: أن يزول به ملككم لأنه ما تجدد دين إلا زال به ملك³

الماوردي

³ وقال مجاهد وجماعة من المفسرين: أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون قوله: "ما علمت لكم من إله غيري" وقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان بينهما أربعون سنة" البغوي

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

غَافِلُونَ﴾⁴

[الروم/٧]

"ولما كان من المشاهدة أن لهم عقولا راجحة وأفكارا صافية، وأنظارا صائبة، فكانوا بصدد أن يقولوا: إن علمنا أكبر من علمكم، كان كأنه قيل بيانا لأنه يصح سلب ما ينفع من العلم بتأديته إلى السعادة الباقية، وتنبئها على أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا: نعم ﴿يعلمون﴾ ولكن ﴿ظاهرا﴾ أي واحدا ﴿من﴾ التقلب في ﴿الحياة الدنيا﴾ وهو ما أدتهم إليه حواسهم وتجاربهم إلى ما يكون سببا للتمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي. انتهى. وأمثال هذا لهم كثير، وهو وإن كان عند أهل الدنيا

⁴ " (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) . . ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه . وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا ، يستغرق جهودهم بعضه ، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه . والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ؛ ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه ، يظل ينظر وكأنه لا يرى ؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته ، ولا يعيش بها ومعها . وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ؛ وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود . والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس . ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية" سيد قطب

عظيما فهو عند الله حقير، فلذلك حقره لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم في إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل، وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع، وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة، فهو ممدوح منبه عليه بوصفها بما يفهم الأخرى. ولما ذكر حالهم في الدنيا، أتبعه ذكر اعتقادهم في الآخرة، مؤكدا إشارة إلى أن الحال يقتضي إنكار أن يغفل أحد عنها، لما لها من واضح الدلائل أقربه أن اسم ضدها يدل عليها، لأنه لا تكون إلا في مقابلة قصيا، ولا أولى إلا بالنسبة إلى أخرى، فقال: ﴿وهم﴾ أي هؤلاء الموصوفون خاصة ﴿عن الآخرة﴾ التي هي المقصود بالذات وما خلقت الدنيا إلا للتوصل بها إليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والإكرام ﴿وهم غافلون﴾ أي في غاية الاستغراق والإضراب عنها بحيث لا يخطر في خواطرهم، فصاروا لاستيلاء الغفلة عليهم إذا ذكرت لهم كذبوا بها، واستهزؤوا بالمخبر، ولم يجزوها نوع تجويز مع أن دلائلها تفوت الحصر، وتزيد على العد، فصاروا كأنهم مخصصون بالغفلة عنها من بين سائر الناس ومخصصون لها بالغفلة من بين سائر الممكنات، فلذلك لا يصدقون الوعد بإدالة الروم لما رسخ في نفوسهم من أن الأمور تجري بين العباد على غير قانون الحكمة، لأنهم كثيرا ما يرون الظالم يموت ولم يقتص منه، وهم في غفلة عن أنه آخر جزاؤه إلى يوم الدين، يوم يكشف الجبار حجاب الغفلة ويظهر عدله وفضله، وتوضع الموازين القسط، فتطيش بمثاقيل الدر،

ويقتص للمظلومين من الظالمين، ومن أريد القصاص منه عاجلا فعلا، وقضية الروم هذه من ذلك، وهذا السياق يدل على أنه لا حجاب عن العلم أعظم من التكذيب بالآخرة، ولا شيء أعون عليه من التصديق بها والاهتمام بشأنها، لأن ذلك حامل على طلب الخلاص في ذلك اليوم، وهو لا يكون على أتم الوجوه إلا لمن وصل إلى حالة المراقبة، وذلك لا يكون إلا لمن علم إما بالكشف أو الكسب كل علم فلم يتحرك حركة إلا بدليل يبيحها له ويحمله عليها، وبهذا التقرير يظهر أن هاتين الجملتين بكاملهما علة لنفي العلم عنهم، والمعنى أن العلم منفي عنهم لما شغل قلوبهم من هذا الظاهر في حال غفلتهم عن الآخرة، فانسد عليهم باب العلم. والله الموفق"

البقاعي

تمت بحمد الله

ووقع الفراغ منها عصر الجمعة الثاني عشر من ذي الحجة لعام ألف وأربعمئة وأربعة وأربعين من

الهجرة النبوية.

١٢/١٢/١٤٤٤هـ

للملاحظات:

Albara1500@hotmail.com

الفهرس

- 1 الحمد لله
- 3 شر الدواب
- 4 عادة الملوك
- 5 لا تجزي نفس عن نفس
- 6 الملك الحق
- 7 الشهداء
- 8 اتخذ إلهه هواه
- 9 أقبل بقلبك
- 10 فاتبعوني يحببكم الله
- 11 بل نقذف بالحق
- 12 والله يعصمك من الناس
- 13 ثلاث طبقات
- 14 إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
- 16 وعد الله الذين آمنوا
- 20 كرامة النبي صلى الله عليه وسلم
- 21 إنك على صراط مستقيم
- 23 الغفور الرحيم

- 25 ظالم لنفسه.
- 26 إنما أعظكم بواحدة.
- 27 الكفر سبب لخراب العالم.
- 29 فمن يرد الله أن يهديه.
- 30 ظاهر الإثم وباطنه.
- 31 إني عذت بربي وربكم.
- 34 والله غالب على أمره.
- 35 لا تسجدوا للشمس ولا للقمر.
- 36 حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.
- 37 سواء علينا أجزعنا أم صبرنا.
- 38 فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟
- 39 من الظلمات إلى النور.
- 40 ونردُّ على أعقابنا بعد إذ هदानا الله؟
- 41 فمثله كمثل الكلب.
- 43 إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم.
- 45 وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.
- 46 وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا.
- 47 كدأب آل فرعون.

- 48 قل إن كان آباؤكم.....
- 49 ولو شاء ربك لآمن من في الأرض.....
- 51 ومن يهاجر في سبيل الله.....
- 53 الفاسق الخبيث.....
- 54 ولا تقربوا الزنا.....
- 57 وحملها الإنسان.....
- 58 ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأجل.....
- 59 فبأي حديثٍ بعده يؤمنون؟.....
- 60 تقريع لإبليس وضربائه.....
- 61 يخادعون الله وهو خادعهم.....
- 62 ويا قوم لا أسألكم عليه مالا.....
- 63 اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.....
- 64 وأنت خير الوارثين.....
- 65 إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.....
- 66 ما تجدد دين إلا زال به ملك.....
- 67 يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.....